﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصّافات: 6 - 10]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الـقـدرةُ قرينةُ الرُّبوبيَّةِ

بعدَما أخبرَ تعالى عن ربوبيَّتِهِ للسَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وربوبيَّتِهِ للمشارقِ؛ أخبرَ عن قدرتِهِ في تزيينِ السَّماءِ بالكواكبِ، وحراستِها مِنَ الشَّياطينِ[1].

ومن المناسبة أنَّ المشارقَ تقتضي الفَيْضَ والإظهارَ، فأُتبِعَتْ بذِكْرِ ما مِنْ شأنِهِ الشُّروقُ والغُروبُ، وهو الكواكبُ[2]، ومنها أنَّ هذهِ الآياتِ تتنزَّلُ منزلةَ الدَّليلِ على أنَّهُ ربُّ السَّماواتِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِهِ، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ، وتزيينُ الشَّيءِ: تحسينُهُ[4]، والزّينةُ ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّةٌ، كالعِلمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ، وزينةٌ بدنيَّةٌ، كالقوَّةِ وطولِ القامةِ، وزينةٌ خارجيَّةٌ، كالمالِ والجاهِ[5]. والمرادُ بالتَّزيينِ هنا: التَّحسينُ والتَّجميلُ.

2) ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾: (كبب) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ وتجمُّعٍ[6]،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبب).

وكوكبُ الشّيءِ: معظَمُهُ[1]، والكواكبُ: النُّجومُ البادية[2]، ولعلَّها سُمّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها تَظْهَرُ للرّائي مجتمعةً في كَبِدِ السَّماءِ. والمرادُ بها هنا: النُّجومُ الَّتي تلمعُ في اللَّيلِ ما عدا الشَّمسَ والقمرَ[3].

3) ﴿شَيْطَانٍ﴾: (شطن) أصلٌ يدلُّ على البُعْدِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بِئْرٌ شَطونٌ، أي: بعيدةُ القَعْرِ[5]، والشَّيطانُ مِنْ هذا الأصلِ على الصَّحيحِ، والنّونُ فيهِ أصليَّةٌ[6]، سُمّيَ بذلكَ لبُعدِهِ عن الحَقِّ وعن رحمةِ اللّهِ. وجوِّزَ أنْ يكونَ مِنْ بابِ (شاطَ) إذا احترقَ، فالشَّيطانُ مخلوقٌ مِنَ النّارِ، والنّونُ فيهِ على هذا زائدةٌ[7]، ويُطلَقُ الشَّيطانُ على كلِّ عاتٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والحيواناتِ[8]. والمُرادُ هنا: شياطينُ الجنِّ؛ لأنَّهم هم الَّذينَ كانوا يسترِقونَ السَّمْعَ.

4) ﴿مَّارِدٍ﴾: (مرد) أصلٌ يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِنْ قِشْرِهِ، أو ما يعلوهُ مِنْ شَعَرِهِ[9]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: شجرةٌ مرداءُ، أي: لا ورقَ لها، وشابٌّ أمردُ[10]، أي: لا شَعَرَ لهُ، والمارِدُ والمريدُ مِنْ شياطينِ الجنِّ والإنسِ: المُتَعرّي مِنَ الخيرِ، الخارجُ عن الحقِّ[11]. والمرادُ هنا: الخارجُ عن الطّاعةِ مِنْ شياطينِ الجنِّ[12].

5) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: (سمع) أصلٌ يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ[13]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذُنِ بها تُدرَكُ الأصواتُ[14]. والمرادُ بنفيِ التَّسمُّعِ هنا: نفيُ السَّمعِ[15].

6) ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: (المَلأُ) الأشرافُ، سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبةً، والعُيونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (كبب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كبب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شطن).
(6) الخليل، العين: (شطن).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شطن).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرد).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مرد).
(11) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مرد).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(14) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(15) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 320.

جلالةً[1]، أو هو جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، ويقالُ: مالأْتُهُ، إذا عاوَنتُهُ وصِرْتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[2]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكةُ؛ لأنَّهم يسكنونَ السَّماواتِ[3].

7) ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: (قذف) أصلٌ يدلُّ على الرَّمْيِ والطَّرْحِ[4]، أو على الرَّمْيِ البعيدِ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَلْدَةٌ قَذوفٌ، أي: بعيدةٌ[6]، واستُعيرَ القَذْفُ للشَّتْمِ والعَيْبِ[7]. والمرادُ بهِ هنا: الرَّجْمُ[8].

8) ﴿جَانِبٍ﴾: (جنب) أصلٌ يدلُّ على النّاحيةِ، والجَنْبُ: الجارحةُ، ويُستعارُ للنّاحيةِ الَّتي تَليها، كاستعارةِ سائرِ الجوارحِ لذلكَ، نحو اليمينِ والشِّمالِ لجهتِهما وناحيتِهما[9]، وجانبُ الشَّيءِ: جَنْبُهُ[10]. ومعنى ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: مِنْ كلِّ مكانٍ[11].

9) ﴿دُحُورًا﴾: (دحر) أصلٌ يدلُّ على الطَّرْدِ والإبعادِ[12] والدَّفْعِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا ودُحورًا، وهو داحِرٌ ودَحورٌ[13]. والمرادُ بالدَّحْرِ هنا: الدَّفْعُ والإبعادُ[14]، والطَّرْدُ معَ إهانةٍ وإذلالٍ.

10) ﴿وَاصِبٌ﴾: (وصب) أصلٌ يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ[15]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: واصبَ على الأمرِ، وواظبَ عليهِ، وداومَ عليهِ، كلُّها بمعنًى[16]. والمرادُ بالواصبِ هنا: الدّائمُ الثّابتُ[17].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ملأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قذف).
(6) الرّاغب، المفردات: (قذف).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قذف).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(9) الرّاغب، المفردات: (جنب).
(10) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جنب).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (دحر).
(13) الزّبيديّ، تاج العروس: (دحر).
(14) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 16.
(15) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصب).
(16) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وصب).
(17) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.

11) ﴿خَطِفَ﴾: (خطف) أصلٌ يدلُّ على استلابِ الشَّيءِ في خِفَّةٍ وسُرعةٍ[1]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَرْقٌ خاطِفٌ لنورِ الأبصارِ، والشَّيطانُ يَخْطِفُ السَّمْعَ، إذا استرقَهُ[2]، ويقالُ: بازٌ مُخطِفٌ، أي: يختطفُ ما يصيدُهُ[3]، والخاطفُ أيضًا: الذِّئْبُ؛ لاستلابِهِ الفريسةَ[4]. والمرادُ بالخَطْفِ هنا: الاختلاسُ، أي: اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارَقةً[5].

12) ﴿شِهَابٌ﴾: (شهب) أصلٌ يدلُّ على اختلاطِ البياضِ بالسَّوادِ[6]، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّارِ الموقَدةِ، أو العارضُ مِنَ الجَوِّ. والمرادُ بِهِ هنا: ما يُسَمَّى بالنَّيْزَكِ في اصطلاحِ علمِ الهيئةِ[7]، وهو ما يُرى كأنَّهُ كوكبٌ منقضٌّ مِنَ السَّماءِ[8].

13) ﴿ثَاقِبٌ﴾: (ثقب) أصلٌ يدلُّ على خَرْقِ الشَّيءِ[9]، والثّاقبُ: المُضيءُ الَّذي يَثْقُبُ بنورِهِ وإضاءَتِهِ ما يقعُ عليهِ[10]. والمرادُ بِهِ هنا: الخارقُ الَّذي يتركُ ثقبًا في الجسمِ الَّذي يُصيبُهُ[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّماءُ الدُّنيا محروسةٌ محفوظةٌ مِن استراقِ الشَّياطينِ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن دليلٍ مِنْ دلائلِ قُدرتِهِ ورُبوبيَّتِهِ، فيقولُ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ للنّاظرينَ إليها مِنْ أهلِ الأرضِ ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ المضيئةِ، ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ مُتمرِّدٍ عاتٍ في الشَّرِّ والفسادِ، وهؤلاءِ الشَّياطينُ لا يسَّمَّعونَ إلى الملائكةِ إذا تكلَّموا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خطف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطف).
(3) الرّاغب، المفردات: (خطف).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خطف).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهب).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شهب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 70.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقب).
(10) الرّاغب، المفردات: (ثقب).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.

بما يوحيهِ اللّهُ تعالى ويقضيهِ، ويُرمَوْنَ مِنْ كلِّ جهةٍ يقصدونَ السَّماءَ منها، مطرودينَ مُبعَدينَ معَ ذلٍّ وهَوانٍ، هذا عذابُهم في الدُّنيا، ولهُم في الآخرةِ عذابٌ دائمٌ مُستمِرٌّ، ثمَّ استثنَى مِنْ عدمِ السَّماعِ مَنِ اختلسَ شيئًا مِنْ كلامِ الملائكةِ، وأخبرَ بأنَّهُ يُدرِكُهُ الشِّهابُ فيُحرِقُهُ، أو يُضعِفُهُ بحيثُ لا يَقْوَى على التَّسمُّعِ مرَّةً أخرى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا﴾:

بديعُ خَلْقِ اللهِ ﷻ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ لَطائفِ صُنْعِهِ تعالى، وبَديعِ خَلْقِهِ[2]، وهو بمنزلةِ الدَّليلِ على رُبوبيَّتِهِ ﷻ للسَّماواتِ[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

تزيينُ السَّماءِ بالكواكبِ حقيقةٌ قطعيَّةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مِنَ الثَّباتِ والاستقرارِ، وأنَّ هذا التَّزيينَ العجيبَ الشَّأنِ أمرٌ ثابتٌ مُتقرِّرٌ، وهو حقيقةٌ قطعيَّةٌ لا تقبلُ التَّشكيكَ، وهو حُجَّةٌ على النّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بلاغةُ التَّأكيدِ:

العاقلُ لا يُكابِرُ المحسوسَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على كونِ تزيينِ السَّماءِ بالكواكبِ أمرًا مُتيقَّنًا، لا ينبغي أنْ يمتريَ فيهِ عاقلٌ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ إقامةِ الدَّليلِ على رُبوبيَّتِهِ ﷻ، وللإيذانِ بأنَّ فعلَ المشركينَ - وهو الإعراضُ عن الإيمانِ والتَّوحيدِ - فعلُ مَنْ يُنكِرُ ما للنُّجومِ مِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 6.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

الزّينةِ[1]، ويكابرُ بذلكَ حِسَّهُ، ويُعانِدُ عقلَهُ الَّذي يهديهِ إلى أنَّ اللَّهَ ﷻ هو الإلهُ الواحدُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظَمةِ:

أُسنِدَ الحرفُ (إنّ) وفعلُ التَّزيينُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ التَّزيينِ؛ لأنَّهُ فعلُ العظيمِ سبحانَهُ، وفعلُ العظيمِ عظيمٌ، أي: زيَّنّا بعظَمتِنا الَّتي لا تُدانى[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهُ مِنْ خصائصِ أفعالِ الرَّبِّ الَّتي لا يستطيعُها أحدٌ سواهُ.

تزيينُ السَّماءِ مِنْ خصائصِ أفعالِ الرَّبِّ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالتَّزيينِ:

في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ السَّماءِ بالعروسِ الَّتي تُزيَّنُ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بهِ، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ – وهو التَّزيينُ – على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهُ سبحانَهُ قد جعلَ السَّماءَ مَسْرَحًا لأنظارِ العبادِ، يملؤُها هيبةً وجمالًا، ولم يُخْلِ مقامَ الاستدلالِ على القدرةِ والرُّبوبيَّةِ مِنَ التَّلويحِ بالإنعامِ والإحسانِ.

السَّماءُ تملأُ العيونَ هيبةً وجمالًا

وجهُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تزيينَ السَّماءِ قد مضَى وتحقَّقَ، وقد شاهدَهُ النّاسُ منذُ القِدَمِ، بل هو سابقٌ على وجودِهم، ووجودِ الأوثانِ الَّتي يعبدونَها، فلا ينبغي أنْ يكونَ للشَّكِّ والإنكارِ إلى قلوبِهم سبيلٌ، وإنَّما سبيلُهم الإقرارُ والإذعانُ بربوبيَّةِ الخالقِ سبحانَهُ، وصرفُ العبادةِ إلى مُستحِقِّها.

وجوبُ عبادةِ مَنْ قدرتُهُ سابقةٌ

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ دونَ الأرضِ:

ورد في قوله ﷻ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ ذكر السَّماواتِ، معَ تقدُّمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.

ذِكْرِ السَّماواتِ والأرضِ في قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ ثبوتَ ربوبيَّتِهِ تعالى للسَّماءِ يقتضي ثبوتَها للأرضِ بطريقِ الأَوْلى[1]؛ لأنَّ النّاسَ يعيشونَ عليها، ويرونَ دلائلَ الرُّبوبيَّةِ فيها آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وأمّا السَّماءُ فقد يغفلونَ عنها لبُعدِها عنهُم، فاقتضَى ذلكَ التَّنبيهَ عليها، ولأنَّ الحديثَ عنِ استراقِ الشَّياطينِ للسَّمْعِ ورَمْيِهم بالشُّهُبِ، وهو مُتعلِّقٌ بالسَّماءِ.

محلُّ استراقِ السَّمْعِ هو السَّماءُ

علَّةُ وصفِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وُصِفَتِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وخُصَّتْ بالذِّكرِ دونَ باقي السَّماواتِ؛ لأنَّها الَّتي تُباشَرُ بأبصارِ المُخاطَبينَ دونَ باقي السَّماواتِ، وزينةُ النُّجومِ ظاهرةٌ فيها[2]، فتكونُ جديرةً بالتَّدبُّرِ والاعتبارِ، ومَنْ تركَهما فقد تعامَى عن الحقائقِ، واستوجبَ الذَّمَّ والتَّقبيحَ، وأيضًا فالحفظُ مِنَ الشَّياطينِ إنَّما هو فيها وحدَها[3]، فيكونُ ذِكْرُها للتَّخلُّصِ إلى ذِكْرِ رَجْمِ الشَّياطينِ ووعيدِهم.

دُنوُّ العِبْرةِ مِنْ أبصارِ المشركينَ

دلالةُ الباءِ:

الباءُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: زيَّنّا السَّماءَ بسببِ زينةِ الكواكبِ[4]، وهذا على قراءةِ الإضافةِ ﴿بِزِينَةِ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، أو بسببِ زينةٍ هي الكواكبُ، وهذا على قراءةِ تنكيرِ الزّينةِ؛ وِفاقَ ما سيأتي بيانُه.

الكواكبُ سببُ تزيينِ السَّماءِ

سرُّ التَّصريحِ بالزّينةِ:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (زيَّنّا السَّماءَ بالكواكبِ) دونَ لفظِ الزّينةِ؛

تكثيرُ المعاني بذِكْرِ ما يُفهَمُ مِنَ السّياقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

لأنَّهُ مفهومٌ مِنَ الفعلِ، لكنْ أُقحِمَ هذا اللَّفظُ للتَّأكيدِ، فقيلَ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، فكأنَّهُ قيلَ: (زيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بالكواكبِ تزيينًا)، فالزّينةُ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ في المعنى، ولكنْ حوِّلَ التَّعليقُ، فجُعِلَتِ الزّينةُ هي المُتعلِّقَ بـ ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لتُفيدَ معنى التَّعليلِ بواسطةِ الباءِ، ومعنى الإضافةِ في تركيبٍ واحدٍ على طريقةِ الإيجازِ[1]. وهذا على قراءةِ الإضافةِ، وأمّا على قراءةِ تنكيرِ الزّينةِ فتفيدُ معنى التَّعليلِ ومعنى البدليَّةِ، وفي التَّصريحِ بالزّينةِ أيضًا مبالغةٌ في كونِ الكواكبِ مُزيِّنةً للسَّماءِ؛ إذ جُعِلَتْ زينةً لها، كأنَّ حقائقَها قد قُلِبَتْ إلى ذلكَ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

انتشارُ الزّينةِ في السَّماءِ أنسبُ بمقامِ الاحتجاجِ وإظهارِ دلائلِ الرُّبوبيَّةِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لأفرادِهِ؛ إذِ المرادُ بها الكُريّاتُ السَّماويَّةُ الَّتي تلمعُ في اللَّيلِ ما عدا الشَّمسَ والقمرَ؛ لحكمةٍ، وهي أنْ تكونَ زينةً للسَّماءِ في اللَّيلِ[2]، وفي الجنسيَّةِ إشارةٌ إلى كثرةِ الزّينةِ وظهورِها بحيثُ لا تخفَى على أحدٍ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ على الكافرينَ، ولَفْتِ نظرِهم إلى دلائلِ ربوبيَّتِهِ ﷻ.

نُكتةُ جمعِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

الكواكبُ أصنافٌ مُتعدِّدةٌ متنوِّعةٌ

جيءَ بلفظِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ مجموعًا؛ للتَّنبيهِ على تعدُّدِ الكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ الدُّنيا وتنوُّعِها؛ فمنها العظيمُ، ومنها ما هو دونَهُ، ومنها الكواكبُ السَّيّارةُ، ومنها الثَّوابتُ، ومنها قِطَعٌ تدورُ حولَ الشَّمسِ[3]، وهي أيضًا أشكالٌ مُتعدِّدةٌ، ولأنَّ الجمعَ أنسبُ بملاءَمةِ الفواصلِ؛ لِما فيهِ مِنَ المدِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

التَّفنُّنُ في التَّعبيرِ مع اتِّحادِ المعنى

قرأ حفصٌ وحمزةُ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتَّنوينِ وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾. وقرأ شعبةُ بالتَّنوينِ ونصبِ ﴿ٱلْكَوَاكِبَ﴾. وقرأ الباقونَ: ﴿بِزِينَةِ﴾ بغيرِ تنوينٍ(1).

أمّا القراءةُ الأولى: فهي على أنَّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بدلٌ مِنَ الزّينةِ(2)؛ لأنَّ الكواكبَ هي الزّينةُ(3)، فإنَّ الكواكبَ بأنفُسِها وأوضاعِ بعضِها مِنْ بعضٍ زينةٌ(4)، وفي سلوكِ طريقةِ البدلِ تشويقٌ للمُبدَلِ، وتقريرٌ لهُ عندَ ورودِهِ على النَّفسِ، أو على أنَّها عطفُ بيانٍ للزّينةِ(5). وأمّا القراءةُ الثّانيةُ: ففيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ الزّينةُ مصدرًا، وفاعلُهُ محذوفٌ، تقديرُهُ: بأنْ زيَّنَ اللّهُ الكواكبَ في كونِها مضيئةً حسنةً في أنفُسِها. والثّاني: أنَّ الزّينةَ اسمٌ لِما يُزانُ بهِ، فتكونُ الكواكبُ منصوبةً بإضمارِ (أعني)، أو تكونُ بدلًا مِنْ ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلَ اشتمالٍ، أي: زيَّنّا كواكبَها، أو مِنْ محلِّ ﴿بِزِينَةٍ﴾(6). وأمّا القراءةُ الثّالثةُ: فهي على إضافةِ الزّينةِ إلى الكواكبِ(7)، وفي هذهِ الإضافةِ تفصيلٌ يأتي.

بلاغةُ تنكيرِ الزّينةِ:

زينةُ الكواكبِ شأنُها عظيمٌ

تنكيرُ الزّينةِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على قراءةِ التَّنوينِ؛ لتعظيمِ شأنِ الزّينةِ وتفخيمِهِ، أي: بزينةٍ أيِّ زينةٍ، زينةٍ عجيبةٍ بديعةٍ(8)، وذلكَ لِما في الكواكبِ مِنْ حُسْنِ الانتظامِ والتَّوزُّعِ، وجمالِ الإضاءةِ والإنارةِ، فهي كالدُّرَرِ المنثورةِ على أديمِ السَّماءِ.

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/ 356.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 64.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 117.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 291.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 66.

دلالةُ إضافةِ الزّينةِ إلى ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

ما زُيِّنَتِ السَّماءُ إلّا لحُسنِها في أنفُسِها

الزّينةُ في الأصلِ مصدرٌ، واسمٌ لِما يُزانُ به الشَّيءُ، ويحتملُهما قولُهُ تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾؛ فإنْ أُريدَ المصدرُ فعلى إضافتِهِ إلى الفاعلِ، أي: بأنْ زانَتْها الكواكبُ، أو على إضافتِهِ إلى المفعولِ، أي: بأنْ زانَ اللّهُ الكواكبَ وحسَّنَها؛ لأنَّها إنَّما زيَّنَتِ السَّماءَ لحُسْنِها في أنفُسِها.

الإضافةُ بمعنى (مِنْ) أو اللّامِ

وإنْ أردتَ الاسمَ فللإضافةِ وجهانِ: أنْ تقعَ الكواكبُ بيانًا للزّينةِ؛ لأنَّ الزّينةَ مُبهَمةٌ في الكواكبِ وغيرِها ممّا يُزانُ بهِ، فتكونُ الإضافةُ بمعنى (مِنْ)، وأنْ يرادَ ما زُيِّنَتْ بهِ الكواكبُ، مِنْ ضوئِها، وأشكالِها المختلفةِ، ومطالِعِها ومَسايرِها، فتكونُ الإضافةُ لاميَّةً[1]. ولا يَخفَى أنَّ هذا التَّفصيلَ على قراءةِ الجمهورِ بإضافةِ الزّينةِ إلى الكواكبِ، لا على تنوينِ الزّينةِ.

بلاغةُ الإدماجِ:

كـثرةُ منافعِ الكواكبِ

أُدمِجَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ وما بعدَهُ؛ الامتنانُ على النّاسِ بأنْ جُعِلَ لهُم في السَّماءِ زينةُ الكواكبِ، تروقُ أنظارَهم؛ فإنَّ محاسنَ المناظرِ لذَّةٌ للنّاظرينَ، والامتنانُ على المسلمينَ بأنْ جُعِلَ في تلكَ الكواكبِ حفظٌ مِنْ تلقّي الشَّياطينِ للسَّمعِ فيما قضَى اللّهُ أمرَهُ في العالَمِ العُلويِّ؛ لقطعِ سبيلِ اطِّلاعِ الكُهّانِ على بعضِ ما سيحدثُ في الأرضِ، فلا يَفتِنوا النّاسَ في الإسلامِ كما فَتَنوهم في الجاهليَّةِ، وليكونَ ذلكَ تشريفًا للنَّبيِّ ﷺ بأنْ قُطِعَتْ وسيلةٌ مِنْ وسائلِ الكهانةِ عندَ إرسالِهِ، وللإشارةِ إلى أنَّ في الكواكبِ منفعةً عظيمةً دينيَّةً، وهي قطعُ دابرِ الشَّكِّ في الوَحْيِ، كما أنَّ فيها منفعةً دنيويَّةً، وهي الزّينةُ والاهتداءُ بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 318، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 259.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

تشابهَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ معَ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]؛ ففي كلٍّ منهما حديثٌ عن تزيينِ السَّماءِ الدُّنيا بالكواكبِ، وفي كلٍّ منهما تصديرٌ للكلامِ بالتَّأكيدِ معَ اختلافِ نوعِ المُؤكِّداتِ، فهذهِ الآيةُ قد أُكِّدَتْ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، وتلكَ أُكِّدَتْ باللّامِ الواقعةِ في جوابِ القَسَمِ (وقد)، والجملةُ هنا اسميَّةٌ، وهناكَ فعليَّةٌ، وقد جُعِلَتِ الكواكبُ هنا زينةً، وشُبِّهَتْ هناكَ بالمصابيحِ؛ ليناسبَ بين شدّةِ ظهورِ نورِ المصابيحِ وما ورد قبلَه من الأمرِ بتكرارِ النّظرِ مرّةٍ بعد مرّةٍ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: 3 - 4].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَحِفْظًا﴾:

عظمةُ خلقِ الكواكبِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ معطوفٌ ومنصوبٌ، فلا بدَّ لهُ مِنْ معطوفٍ عليهِ، ومِنْ ناصبٍ، فإمّا أنْ يُعطفَ على ﴿بِزِينَةٍ﴾ مِنْ حيثُ المعنى؛ لأنَّهُ في الحقيقةِ مفعولٌ لهُ لقولِهِ: ﴿زَيَّنَّا﴾، والتَّقديرُ: (خلَقْنا الكواكبَ زينةً وحفظًا)، وإمّا أنْ يُقدَّرَ النّاصبُ ويُؤخَّرَ، وهو (زيَّنّاها)؛ ليفيدَ الاهتمامَ بالمُقدَّمِ، أو يُقدَّمَ بأنْ يقالَ: (وحَفِظْناها حفظًا)، فيكونُ (حفظاً) مفعولًا مطلقًا؛ ليفيدَ التَّوكيدَ، والدّلالةَ على أنَّ الحفظَ أهمُّ مِنَ التَّزيينِ[1]، أو هو مفعولٌ مِنْ أجلِهِ بزيادةِ الواوِ[2]. وأيًّا ما كانَ ففي العطفِ إشعارٌ بعظَمةِ خَلْقِ الكواكبِ؛ لأنَّ كونَ الشَّيءِ الواحدِ لأغراضٍ مُتعدِّدةٍ أدلُّ على القدرةِ، وأظهرُ في العظَمةِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 119.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿وَحِفْظًا﴾:

عظَمةُ الحفظِ مِـن اسـتراقِ الشَّـياطـينِ للسَّمعِ

تنكيرُ ﴿وَحِفْظًا﴾ للتَّعظيمِ، أي: وحفظًا عظيمًا بديعَ الشَّأنِ؛ لأنَّهُ حفظٌ مِنَ الشَّياطينِ المعروفينَ بتمرُّدِهم وسرعةِ تحرُّكِهم، وكثرةِ اضطرابِهم، وصيانةٌ لأخبارِ الملأِ الأعلى مِنْ أنْ تُختلَسَ ويُستمعَ إليها، وإشارةٌ إلى حمايةِ الوَحْيِ النّازلِ مِنَ السَّماءِ مِنَ النَّقْصِ والخللِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلِّ﴾:

الجنُّ معزولونَ جـمـيـعًـا عـن السَّمعِ

جيءَ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ للتَّنصيصِ على العمومِ، وأنَّ الحفظَ مِنِ استراقِ السَّمعِ لجميعِ الشَّياطينِ إلّا ما شاءَ اللّه؛ فالجنُّ جميعًا معزولونَ عن السَّمعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالشَّيطانِ:

الشَّيطانُ بعيدٌ عن الحقِّ والخيرِ

عُبِّرَ بلفظِ الشَّيطانِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ لدلالةِ هذا اللَّفظِ بحسَبِ الاشتقاقِ على البُعدِ عن الخيرِ، أو على الاحتراقِ، فيكونُ فيه تنبيهٌ على علَّةِ الحفظِ والرَّجْمِ، وهي كونُ استراقِ السَّمعِ صادرًا مِنْ كلِّ بعيدٍ عن الخيرِ مُحترقٍ[1]، مُفسِدٍ، مُثيرٍ للشَّرِّ.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيْطَانٍ﴾:

شـدَّةُ شكيمةِ الـشَّـيـطـانِ في الشَّرِّ

نُكِّرَ ﴿شَيْطَانٍ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ بوساطةِ إضافتِهِ إلى لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾، وليُتوصَّلَ إلى وصفِهِ بـ ﴿مَّارِدٍ﴾؛ إذ هو وصفٌ نكرةٌ، ولأنَّ في تنكيرِهِ تهويلًا لِما فيهِ مِنْ تهييجِ الشُّرورِ، ومِنَ البُعدِ عن الخيرِ.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿مَّارِدٍ﴾:

وُصِفَ الشَّيطانُ في قولِهِ تعالى: ﴿شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ بكونِهِ ماردًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.

للمبالغةِ في الدّلالةِ على عُتوِّهِ وخروجِهِ مِنَ الطّاعةِ[1] على وجهٍ لا يخالطُهُ شيءٌ منها، فهو مُتعرٍّ مِنَ الخيراتِ، مُتجرِّدٌ للشَّرِّ، كما يقالُ: شجرٌ أمردُ، إذا تعرَّى مِنَ الوَرَقِ[2]، وللإشارةِ إلى أنَّ ما يصيبُ إخوانَهُ مِنَ الرَّجْمِ بالشُّهُبِ، لا يَعِظُهُ عن تجديدِ محاولةِ الاستراقِ؛ لِما جُبِلَ عليهِ طبعُهُ الشَّيطانيُّ مِنَ المداومةِ على تلكَ السَّجايا الخبيثةِ، كما لا ينزجرُ الفَراشُ عن التَّهافتِ حولَ المصباحِ بما يصيبُ أطرافَ أجنحتِهِ مِنْ مسِّ النّارِ[3].

الشَّيطانُ عَريٌّ عن كلِّ خيرٍ

نُكتةُ إيثارِ ﴿مَّارِدٍ﴾ على (مَريدٍ):

عُبِّرَ بـ ﴿مَّارِدٍ﴾ دونَ (مريدٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾، معَ أنَّ المريدَ أبلغُ - فهو الشَّديدُ المَرادَةِ - مراعاةً للفواصلِ[4]، وللقصدِ إلى التَّعميمِ في الحفظِ مِنْ كلِّ عاتٍ، سواءٌ كانَ بالغًا في العُتوِّ أو لا[5].

السَّماءُ محفوظةٌ مِنْ كلِّ عاتٍ

علَّةُ فصلِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ كلامٌ منقطعٌ مبتدأٌ؛ اقتصاصًا لِما عليهِ حالُ المُسترقةِ للسَّمعِ[6]؛ فإنَّهُ تعالى لمّا ذكرَ أنَّ الكواكبَ خُلِقَتْ للتَّزيينِ، وأنَّ الحفظَ هو المقصودُ بالذّاتِ؛ أتَى بما عليهِ حالُ المُسترقِ[7].

ردٌّ كيدِ المارِدِ في نَحْرِهِ

وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّهُ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ وجملةِ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾، قُصِدَ منهُ وصفُ قصَّةُ طَرْدِ الشَّياطينِ. ويجوزُ على تقديرِ قولِهِ: ﴿وَحِفْظًا﴾ مصدرًا نائبًا مَنابَ فعلِهِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بيانًا لكيفيَّةِ الحفظِ[8].

منعُ استراقِ السَّمعِ حفظٌ للسَّماءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 121.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.

عِلَّةُ جمعِ ضميرِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾:

الضَّميرُ في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لـ ﴿كُلِّ شَيۡطَٰنٖ﴾ باعتبارِ المعنى؛ لأنَّهُ في معنى الشَّياطينِ[1]، وإلّا فالظّاهرُ إفرادُ الضَّميرِ؛ لأنَّهُ راجعٌ إلى ﴿كُلِّ﴾، وهو لفظٌ مفردٌ[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

قَـهْـرُ الشَّياطينِ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عدمَ تسمُّعِهم إلى الملأِ الأعلى أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ إشعارٌ بتجدُّدِ نعمةِ حفظِ السَّماءِ، وقَهْرِ مَرَدَةِ الشَّياطينِ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وبلاغتها:

قـراءةُ التَّخفيفِ لنفيِ السَّماعِ، وقراءةُ التَّشديدِ لنفيِ الاستماعِ مبالغةً

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفصٌ بتشديدِ السّينِ والميمِ، وقرأ الباقونَ بتخفيفِهما ﴿يَسۡمَعُونَ﴾[3]. أمّا قراءةُ التَّشديدُ فأصلُها: لا يتسمَّعونَ، فقُلِبَتِ التّاءُ سينًا توصُّلًا إلى الإدغامِ[4]، وهي تدلُّ على المبالغةِ في نفي السَّماعِ؛ لأنَّ معنى ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بالتَّشديدِ: أنَّهم يجتهدونَ ويتكلَّفونَ الاستماعَ، ومعَ ذلكَ لا يقدرونَ عليهِ؛ فإنَّ صيغةَ التَّفعُّلِ تدلُّ على معنى التَّكلُّفِ والتَّطلُّبِ والاجتهادِ[5].

وأمّا قراءةُ التَّخفيفِ فتدلُّ على انتفاءِ سماعِهم دونَ استماعِهم[6]، وظاهرُ الأحاديثِ أنَّهم يستمعونَ حتَّى الآنَ، لكنَّهم لا يسمعونَ، وإنْ سمعَ منهم أحدٌ شيئًا أدركَتْهُ الشُّهُبُ، لأنَّ السَّماءَ قد مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا مِنْ وقتِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وكانَ الرَّجْمُ في الجاهليَّةِ أخفَّ[7].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 222.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 356.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 67.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 223.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 11، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466.

ويمكنُ الجمعُ بينَ القراءتينِ بأنَّ ثمرةَ التَّسمُّعِ السَّمْعُ، فلمّا انتفَى السَّمْعُ الَّذي هو الثَّمرةُ، انتفَى التَّسمُّعُ مبالغةً؛ لعدمِ حصولِ مقصودِهِ، أو المرادُ نفيُ التَّسمُّعِ المباشرِ، وهو الَّذي يتهيَّأُ لَهُ إذا بلغَ المكانَ الَّذي تصلُ إليهِ أصواتُ الملأِ الأعلى، أي: أنَّهم يُدحَرونَ قبلَ وصولِهم المكانَ المطلوبَ[1]، أو يكونُ بينَ القراءتينِ تكاملٌ في أداءِ المعنى المرادِ، فقراءةُ التَّشديدِ دلَّتْ على أنَّ الشَّياطينَ غالبًا لا يستطيعونَ أنْ يقتربوا إلى الملأِ الأعلى ليتسمَّعوا، وقراءةُ التَّخفيفِ دلَّتْ على أنَّهُ إذا اقتربَ بعضُهم لا يُمكَّنونَ مِنَ السَّماعِ.

نُكتةُ تعديةِ السَّماعِ بـ ﴿إِلَى﴾:

تضمينُ السَّماعِ معنى الإصغاءِ مبالغةً وتهويلًا لِما يمنعُهم عنهُ

فعلُ (سمعَ) لهُ استعمالاتٌ؛ فهو يتعدَّى إلى غيرِ المسموعِ بنفسِهِ، كـ (سمعتُ زيدًا يتحدَّثُ)، ويتعدَّى بـ (إلى) للمسموعِ، كـ (سمعتُ إلى حديثِهِ)، والى غيرِهِ، كـ (سمعتُ إليهِ يتحدَّثُ)، وهو يفيدُ الإصغاءَ معَ الإدراكِ[2]، فتَعْديةُ السَّماعِ هنا بـ ﴿إِلَى﴾ لتضمُّنِهِ معنى الإصغاءِ؛ مبالغةً وتهويلًا لِما يمنعُهم عن السَّماعِ. ووجهُ المبالغةِ: أنَّهُ يَلزمُ مِنْ نفيِ الإصغاءِ نفيُ الإدراكِ بالطَّريقِ الأولى على سبيلِ الكنايةِ، وهي أبلغُ. ووجهُ التَّهويلِ: أنَّهم إذا كانوا معَ إصغائِهم لا يسمعونَ دلَّ ذلكَ على مانعٍ عظيمٍ، ودهشةٍ تُذهِلُهم عن الإدراكِ. ويدلُّ على تضمُّنِهِ معنى الإصغاءِ قراءةُ التَّشديدِ؛ إذ التَّسمُّعُ هو طلبُ السَّماعِ، وطلبُ السَّماعِ يكونُ بالإصغاءِ[3].

تضمينُ السَّماعِ معنى الانتهاءِ

ويحتملُ أنْ يكونَ حرفُ ﴿إِلَى﴾ مُشيرًا إلى تضمينِ السَّماعِ معنى الانتهاءِ، أي: لا ينتهونَ فيسمعونَ، أي: لا يتركُهم الرَّمْيُ بالشُّهُبِ مُنتهينَ إلى الملأِ الأعلى انتهاءَ الطَّالبِ إلى المكانِ المطلوبِ، بل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 260، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 223.

تدحَرُهم الشُّهُبُ قبلَ وصولِهم، فلا يتلقَّفونَ مِنْ علمِ ما يجري في الملأِ الأعلى إلّا أشياءَ مخطوفةً غيرَ مُتبيَّنةٍ، وذلكَ أبعدُ لهُم مِنْ أنْ يَسمعوا؛ لأنَّهم لا ينتهونَ فلا يسمعونَ[1].

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ للعهدِ؛ إذِ المرادُ بهِ الملائكةُ[2]، بدليلِ وصفِهِ بالأعلى.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالملأِ:

تشريفُ جمعِ الملائكةِ

عُبِّرَ بالملأِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على تشريفِ الملائكةِ وعُلوِّ شأنِهم وقَدْرِهم؛ لأنَّ الملأ هو الجمعُ العظيمُ الشَّريفُ[3].

بلاغةُ وصفِ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

الملائكةُ أشرفُ ممَّنْ دونَهم

وُصِفَ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في قولِ الباري جلَّ وعزَّ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على تمييزِهم من الملأِ الأدنى، وهم أهلُ الأرضِ[4]، ولتشريفِهم بما تدلُّ عليهِ الصِّفةُ مِنْ عُلوِّهم على غيرِهم[5]، إلّا مَنْ فضَّلَهُ اللّهُ عليهِم، فيُفيدُ الكلامُ عُلوَّ درجتِهم مكانًا ومكانةً[6].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾:

طَرْدُ الشَّياطينِ وردُّهم خاسئينَ

عُطِفَ القَذْفُ على عدمِ التَّسمُّعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ﴾؛ للدّلالةِ على مزيدِ الحفظِ للسَّماءِ، ومزيدِ قَهْرِ الشَّياطينِ؛ إذ لا يقتصرُ الحفظُ على منعِهم مِنَ التَّسمُّعِ، بل يتعدَّى إلى رَجْمِهم بالشُّهُبِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 444.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196.

ويحتملُ أنْ يكونَ العطفُ مِنْ قبيلِ عطفِ العلَّةِ على المعلولِ، والتَّقديرُ: لا يسَّمَّعونَ إلى الملأِ الأعلى؛ لأنَّهم يُطرَدونَ طَرْدًا قويًّا، ويُقذَفونَ مِنْ كلِّ جانبٍ[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

قذفُ الشَّياطينِ على الاستمرارِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ القَذْفِ واستمرارِهِ كلَّما تجدَّدَ منهُم محاولةُ استراقِ السَّمْعِ، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنْ مصادفةِ وقتٍ يتوقَّفُ فيهِ الطَّرْدُ والقَذْفُ، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ للمِنَّةِ بحفظِ السَّماءِ ببيانِ استمراريَّتِهِ.

سرُّ البناءِ للمفعولِ:

شدَّةُ هَلَعِ الشَّياطينِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ

بُنيَ ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ الأظهرَ قذفُهم، لا تعيينُ قاذفِهم، معَ أنَّهُ أدلُّ على القدرةِ الإلهيَّةِ[2]؛ إذ يشيرُ البناءُ للمفعولِ إلى تهويلِ الأمرِ، وأنَّ الشَّياطينَ في حالِ خوفٍ وهَلَعٍ شديدَينِ، لا يدرونَ مِنْ أينَ يُقذَفونَ، ولا مَنْ يقذفُهم.

الملائكةُ حُرّاسُ السَّماءِ

ويحتملُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ؛ لأنَّ القاذفَ معلومٌ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ بالحفظِ، كما أشارَ إليهِ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجنّ: 8][3].

دلالةُ ﴿مِن﴾:

ابتداءُ قَذْفِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ مِنْ كلِّ جانبٍ

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِن﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ للابتداءِ المكانيِّ، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ قَذْفِ الشَّياطينِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ يكونُ مِنْ جميعِ الجوانبِ، أي: أنَّ كلَّ شيطانٍ قصدَ جهةً قُذِفَ منها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلِّ﴾:

جيءَ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على العمومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 224.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.

لا جـانـبَ في السَّـمـاءِ آمِـنٌ لمُسترِقِ السَّمْعِ

﴿كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ للدّلالةِ على عمومِ جهاتِ القَذْفِ، وأنَّ كلَّ جهةٍ صعدوا للاستراقِ منها تصيرُ مصدرًا للرَّجْمِ والقَذْفِ[1]، وفي ذلكَ تهويلٌ للخَطْبِ وتفظيعٌ؛ إذ لا توجدُ جهةٌ آمنةٌ. وليسَ المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ يُرمَى مِنْ كلِّ جانبٍ، بل هو على التَّوزيعِ، أي: كلُّ مَنْ صعدَ مِنْ جانبٍ رُمِيَ منهُ[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿جَانِبٍ﴾:

كـلُّ جـهـاتِ السَّماءِ منيعةٌ

نُكِّرَ ﴿جَانِبٍ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ بوساطةِ إضافتِهِ إلى لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾، أي: مِنْ جميعِ جوانبِ السَّماءِ مِنْ أيِّ جهةٍ صعدوا للاستراقِ منها[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالجانبِ:

تناغمُ فواصلِ الآياتِ

عُبِّرَ بالجانبِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ذلك أنّ الجانبَ أدلُّ على الشُّمولِ؛ لأنَّهُ النّاحيةُ والفِناءُ، والجَنْبُ: القطعةُ العظيمةُ مِنَ الشَّيءِ، تكونُ مُعْظَمَهُ أو كثيرًا منهُ[4]، وأمّا لفظ الجهةُ – مثلاً – فيُرادُ به بعضُ الأطرافِ، أو ما هوفي حُكمِ البعضِ[5]، وبناءً على ذلكَ يكونُ إيثارُ لفظِ الجانبِ أنسبَ لسَعَةِ القذفِ وإحاطتِهِ؛ فلا يُفلتُ منهُ أحدٌ.

بلاغةُ موقعِ ﴿دُحُورًا﴾:

قُـبْـحُ حـالِ المُـسـتـرِقـيـنَ المقذوفينَ

في انتصابِ قولِهِ تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ وجوهٌ؛ **الأوَّلُ:** أنَّهُ مصدرٌ منصوبٌ على أنَّهُ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: يُدْحَرونَ دُحورًا، ودلَّ على الفعلِ المحذوفِ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾[6]، وفي ذلكَ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 69.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنب).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 295.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.

إيجازٌ حسنٌ، وتأكيدٌ للدُّحورِ. **والثّاني**: أنَّهُ مفعولٌ مطلقٌ لـ (يُقذَفونَ)، كـ (قعدتُ جُلوسًا). فيُقامُ ﴿دُحُورًا﴾ مُقامَ (قَذْفًا)[1]، والغرضُ مِنْ ذلكَ التَّأكيدُ. **والثّالثُ**: أنَّهُ مفعولٌ لأجلِهِ، والتَّقديرُ: ويُقذَفونَ للدُّحورِ، ثمَّ حُذِفَ اللّامُ[2]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في جعلِ دُحورِهم علَّةً للقذفِ. **والرّابعُ**: أنَّهُ حالٌ بمعنى: مدحورينَ[3]، أو ذوي دُحورٍ[4]، فتُفيدُ الحالُ اقترانَ الدُّحورِ بالقَذْفِ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِهم.

نُكْتةُ تنكيرِ ﴿دُحُورًا﴾:

تنكيرُ ﴿دُحُورًا﴾ للتَّعظيمِ، أي: دُحورًا أيَّ دُحورٍ، دُحورًا عظيمَ الشَّأنِ، يَردُّهم مطرودينَ صاغرينَ مُبعَدينَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالدُّحورِ:

عُبِّرَ بالدُّحورِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿دُحُورًا﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنَ الطَّرْدِ والإبعادِ المقترنَينِ بالذُّلِّ والهَوانِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ كلَّ مَنْ يحاولُ معرفةَ الغيبِ، والاطِّلاعَ على ما يُقضَى في الملأِ الأعلى؛ تلبيسًا على الخَلقِ، وطلبًا للمكانةِ بينَهم؛ فهو جَديرٌ بالذِّلَّةِ والقَذْفِ إلى ما هو غايةٌ في السُّفولِ.

الذُّلُّ والهَوانُ لاحِقانِ بالمُسترِقينَ للسَّمْعِ

سرُّ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تعذيبَ المقذوفينَ أمرٌ ثابتٌ مُستقرٌّ، كما هو شأنُ عذابِ الآخرةِ.

لزومُ العذابِ للشَّياطينِ المدحورينَ

بلاغةُ الاعتراضِ:

جملةُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الجُملةِ المشتملةِ على المُستثنَى منهُ - وهي جملةُ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - وبينَ

المُسترِقونَ للسَّمْعِ مُهانونَ في الدُّنيا والآخرةِ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 261.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 293.

الاستثناءِ[1]، وفائدةُ الاعتراضِ تأكيدُ ما يلحقُ بالمُسترقينَ للسَّمْعِ مِنْ عذابِ القَذْفِ المُهينِ في الدُّنيا، والعذابِ الدّائمِ في الآخرةِ. ويحتملُ أنْ تكونَ الجملةُ معطوفةً على ما قبلَها؛ لبيانِ أنَّ عقوبتَهم ليستْ في الدُّنيا فقطْ، بل هي في الآخرةِ أيضًا.

دلالةُ اللّامِ في ﴿وَلَهُمْ﴾:

استحقاقُ المدحورينَ للعذابِ

عُبِّرَ باللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عذابَ المُسترقينَ للسَّمْعِ مُستحَقٌّ لهُم بسببِ إقدامِهم على هذا الفعلِ الشَّنيعِ، وفي التَّعبيرِ بها تهكُّمٌ بهم أيضًا؛ لأنَّ اللّامَ يُعبَّرُ بها غالبًا عن النّافعِ[2]، فنُزِّلَ العذابُ منزلةَ النّافعِ تهكُّمًا بهم.

غرضُ تقديمِ ﴿وَلَهُمْ﴾:

المُسترقونَ للسَّمْعِ في حَسْرةٍ وثُبورٍ

قُدِّمَ ﴿وَلَهُمْ﴾ على ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وذلكَ ممّا يُقوّي التَّهكُّمَ بهم؛ إذ يُفيدُ التَّقديمُ أنَّ لهُم أمرًا مُستحَقًّا نافعًا، فيتطلَّعونَ لمعرفتِهِ، فإذا هو العذابُ الدّائمُ، فتُصيبُهُمُ الحَسْرةُ بعدَ رجاءِ النَّفعِ، وممّا يُرسّخ معنى التّهكّم ما يُلمَحُ من التَّقديمِ بتخصيصهم بهذا العذاب، فضلًا عمّا فيه من مراعاةٍ للفاصلةِ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عذابُ المُسترقينَ للسَّمْعِ عظيمٌ هائلٌ

تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ لتعظيمِ شأنِ عذابِ المُسترقينَ للسَّمْعِ وتهويلِهِ، أي: ولهُم عذابٌ أيُّ عذابٍ، عذابٌ لا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إلّا المُعذِّبُ بهِ ﷻ، وللدّلالةِ على أنَّهُ نوعٌ آخرُ مِنَ العذابِ غيرُ الرَّمْيِ بالشُّهُبِ المُحرقةِ لهُم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 261.

براعةُ الوصفِ بـ ﴿وَاصِبٌ﴾:

عذابُ الآخرةِ لا انقطاعَ لهُ

وُصِفَ العذابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ بكونِهِ واصبًا؛ لأنَّ الواصبَ - على الأظهرِ - هو الدّائمُ، ففي وصْفِ العذابِ بهِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا العذابَ العظيمَ مُسلَّطٌ عليهم على الدَّوامِ، وهو عذابُ الآخرةِ الَّذي لا انقطاعَ لهُ[1]، ولا يُفتَّرُ عنهُم، وهم فيهِ مُبلِسونَ، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنَ الخلاصِ، ومزيدُ تخسيرٍ لهُم وتحسيرٍ.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

الواصبُ دالٌّ على الدَّوامِ صيغةً ومعنًى

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَاصِبٌ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ، فيكونُ وصفُ ﴿وَاصِبٌ﴾ دالًّا على الدَّوامِ صيغةً ومعنًى.

نُكتةُ الاستثناءِ:

اختبارُ اللهِ لبعضِ عبادِهِ باستراقِ الشَّياطينِ للسَّمْعِ

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ مِنْ قولِهِ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾[2]، أي: لا يسَّمَّعونَ إلّا الشَّيطانَ الَّذي خَطِفَ الخَطْفَةَ[3]. ونُكْتةُ هذا الاستثناءِ: بيانُ أنَّهُ ﷺ قد يشاءُ أنْ يسمعَ بعضُهم في بعضِ الأحايينِ شيئًا ممّا يُقضَى في السَّماءِ؛ فتنةً واختبارًا للعبادِ[4]، ثمَّ تتبعُهُ الشُّهُبُ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى وجوبِ الإعراضِ عن كلامِ الكَهَنةِ والمُنجِّمينَ، وكلِّ مَنْ يدَّعي معرفةَ الغيبِ.

دلالةُ ﴿مَنْ﴾:

احتمالُ الموصوليَّةِ والشَّرطيَّةِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ فيهِ وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّهُ مرفوعُ المحلِّ بدلًا مِنْ ضميرِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وهو أحسنُ؛ لأنَّ الاستثناءَ منفيٌّ. والثّاني: أنَّهُ منصوبٌ على أصلِ الاستثناءِ. والمعنى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

أنَّ الشَّياطينَ لا يسمعونَ الملائكةَ إلّا مَنْ خَطِفَ[1]. وعلى هذا تكونُ ﴿مَنْ﴾ موصولةً، وفي التَّعبيرِ بها إيجازٌ؛ إذ لو قيلَ: إلّا الَّذي، أو إلّا الشَّيطانَ الَّذي خَطِفَ الخَطْفةَ؛ لكانَ في الكلامِ تطويلٌ.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَنْ﴾ شرطيَّةً، وجوابُها ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، أو موصولةً، وخبرُها ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، وهو استثناءٌ منقطعٌ[2]، فلا تكونُ ﴿مَنْ﴾ مرتبطةً بما قبلَها، بل هي استئنافُ كلامٍ جديدٍ. وأيًّا كان المعنى ففي استعمالِ ﴿مَنْ﴾ دلالة على العموم، ونأيًا عن التّخصيص.

سرُّ التَّعبيرِ بالخَطْفِ:

المُسترِقونَ للسَّمْعِ في خوفٍ وترقُّبٍ

عُبِّرَ بالخَطْفِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾؛ لدلالتِهِ على الخِفَّةِ والسُّرعةِ في اختلاسِهم كلامَ الملائكةِ[3]، وهو هنا مستعارٌ للإسراعِ بسماعِ ما يستطيعونَ سماعَهُ مِنْ كلامٍ غيرِ تامٍّ[4]، وفيهِ إشارةٌ إلى شدَّةِ خوفِ الشَّياطينِ وحَذرِهم في التَّسمُّعِ، ولذلكَ يكتفونَ بالكلامِ غيرِ التّامِّ، ويَهربونَ بهِ.

علَّةُ إفرادِ الضَّميرِ:

أُفرِدَ الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾، ولم يُقَلْ: (خَطِفوا)؛ رعايةً للفظِ ﴿مَنْ﴾، وتنبيهًا على قلَّةِ مَنْ يتَّفقُ لهُ أنْ يسمعَ في بعضِ الأحايينِ[5].

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي:

قلَّةُ الاعتدادِ باستماعِ الشَّياطينِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ﴾، ولم يُقَلْ: (إلّا مَنْ يَخْطِفُ الخَطْفةَ فيتبعُهُ)؛ إشارةً إلى قِلَّةِ مَنْ يتأتَّى لهُ الاستماعُ، حتَّى كأنَّ الاستماعَ قد وقعَ مرَّةً واحدةً

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 445.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

مِنْ شيطانٍ واحدٍ، فأتبعَهُ شهابٌ ثاقبٌ، ولو عُبِّرَ بالمضارعِ الدّالِّ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ لظُنَّ أنَّ الاستماعَ يحصلُ كثيرًا، وذلكَ لا يلائمُ مقامَ الكلامِ عن حفظِ السَّماءِ، بل الملائمُ للمقامِ هو قلَّةُ الاعتدادِ بما يتأتَّى للشَّياطينِ مِنْ ذلكَ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾:

المرادُ بالخَطْفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارَقةً، ولذلكَ عُرِّفَتْ تعريفَ العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها أمرٌ مُعيَّنٌ معهودٌ، لا مُطلَقُ الخَطْفةِ، وهي مفعولٌ مُطلَقٌ، والأصلُ فيها التَّنكيرُ بأنْ يقالَ: (إلّا مَنْ خَطِفَ خَطْفةً)، ولكنَّها عُرِّفَتْ للنُّكتةِ المذكورةِ[1]. ويحتملُ أنْ يكونَ تعريفُها للجنسِ[2].

استراقُ الشَّياطينِ يكونُ لكلامِ الملائكةِ

نُكتةُ إفرادِ ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾:

أُفرِدَتْ ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾؛ لأنَّها المرَّةُ مِنَ الخَطْفِ، فهي مفعولٌ مُطلَقٌ لـ ﴿خَطِفَ﴾ لبيانِ عددِ مرّاتِ المصدرِ، أي: خَطْفةً واحدةً[3]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى قلَّةِ الاستماعِ[4]، وأنَّ القليلَ منهُ يستوجبُ الإتباعَ بالشِّهابِ الثّاقبِ.

قليلُ الاستماعِ يستوجبُ العقابَ

دلالةُ الفاءِ:

الظّاهرُ أنَّ الفاءَ في قولِ الباري جلَّ وتباركَ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ ترتُّبَ الإتباعِ على الخَطْفِ، وما فيها مِنَ التَّعقيبِ يدلُّ على أنَّ الإتباعَ يكونُ عندَ حصولِ الخَطْفِ، وعلى إثْرِهِ، بحيثُ لا يتخلَّفُ عنهُ، ولا يطولُ الفصلُ بينَهما.

الرَّمْيُ بالشُّهْبِ نتيجةُ الاستماعِ

سرُّ التَّعبيرِ بالإتباعِ:

عُبِّرَ بالإتباعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على

إدراكُ الشِّهابِ للخاطفِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 226.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

اللَّحاقِ والإصابةِ، يقالُ: أتبعَهُ، إذا مضَى في أثَرِهِ ولَحِقَهُ[1]، ولدلالتِهِ على قوَّةِ انقضاضِ الكواكبِ في أثَرِ الخاطفِ؛ لأنَّ (تَبِعَ) يتعدَّى بدونِ الهمزةِ، أي: تَبِعَهُ بغايةِ ما يكونُ مِنَ السُّرعةِ، حتَّى كأنَّهُ يسوقُ نفسَهُ ويُتبِعُها لهُ، كأنَّ اللهَ سبحانَهُ هيَّأ الشُّهُبَ لئَلّا تنقضَّ إلّا في أثَرِ مَنْ سَمِعَ منهُم حينَ سماعِهِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشِّهابِ:

تشبيهُ النَّيزكِ بقَبَسِ النّارِ

المرادُ بالشِّهابِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ما يُسمَّى بالنَّيْزكِ في اصطلاحِ علمِ الهيئةِ، وفي التَّعبيرِ بالشِّهابِ هنا استعارةٌ لطيفةٌ، بتشبيهِ النَّيْزكِ بقَبَسِ النّارِ، وهو الشُّعلةُ السّاطعةُ[3]، وفيهِ إيماءٌ إلى حَرْقِ الشَّيطانِ المُسترِقِ للسَّمْعِ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿شِهَابٌ﴾:

قـوَّةُ الشُّـهُـبِ وسُرعتُها

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿شِهَابٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ للإفرادِ، أي: فأتبعَهُ فَردٌ مِنْ أفرادِ الشُّهُبِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على قوَّةِ الشُّهُبِ وسُرعتِها؛ إذ يكفي واحدٌ منها لملاحقةِ الشَّيطانِ المارِدِ المُسترِقِ للسَّمْعِ.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿ثَاقِبٌ﴾:

الشِّهابُ شديدُ الإنارةِ

وُصِفَ الشِّهابُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ بكونِهِ ثاقبًا؛ للدّلالةِ على شدَّةِ إضاءتِهِ وإنارتِهِ وتوقُّدِهِ[4]، حتَّى كأنَّهُ يَثْقُبُ الهواءَ بنورِهِ[5]، وهو يتركُ ثقبًا في الجسمِ الَّذي يُصيبُهُ[6]، ففي التَّعبيرِ بالثّاقبِ استعارةٌ لطيفةٌ، بتشبيهِ شدَّةِ الضَّوءِ بالثَّقْبِ[7]. ومِنْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91، 93.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 18.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(7) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.

لطيفِ حكمةِ اللّهِ تعالى أنَّهُ جعلَ عذابَ الشَّيطانِ المخلوقِ مِنْ نارٍ شهابًا فيهِ نارٌ وإحراقٌ، فالشِّهابُ يَحْرِقُ الشَّيطانَ المُسترِقَ للسَّمْعِ فيقتلُهُ، أو يُضعِفُهُ بحيثُ يُصبحُ غيرَ قادرٍ على محاولةِ استراقِ السَّمْعِ مرَّةً أخرى[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: 18]؛ ففي كلٍّ منهما بيانٌ أنَّ مَنْ يسترقُ السَّمْعَ مِنَ الشَّياطينِ يُرجَمُ بالشِّهابِ. وقد عُبِّرَ عنِ اختلاسِ السَّمْعِ في هذهِ الآيةِ بالخَطْفِ؛ للدّلالةِ على سرعتِهِ، وعُبِّرَ عنهُ في آيةِ الحِجْرِ بالاستراقِ؛ للدّلالةِ على أنَّهُ يكونُ بخُفْيةٍ مِنَ المُتحدِّثِ، كأنَّ المُستمِعَ يسرقُ مِنَ المُتكلِّمِ كلامَهُ الَّذي يُخفيهِ عنهُ. ووُصِفَ الشِّهابُ هنا بكونِهِ ثاقبًا؛ للدّلالةِ على كونِهِ شديدَ الإضاءةِ، خارقًا للجسمِ الَّذي يُصيبُهُ، ووُصِفَ هناكَ بكونِهِ مُبينًا؛ للدّلالةِ على كونِهِ ظاهرًا للعَيانِ عندَ هُبوطِهِ مِنَ السَّماءِ بسرعةٍ، وذلكَ أبلغُ في إقامةِ الحجَّةِ، وأنسبُ بإظهارِ المِنَّةِ، وكلٌّ مِنَ الوصفينِ مناسبٌ لفاصلةِ الآيةِ الَّتي وردَ فيها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّينةُ والحِلْيةُ:

الكواكبُ زينةٌ ظاهرةٌ لكلِّ أحدٍ

الحِلْيةُ: هي الزّينةُ الخارجيَّةُ الظّاهرةُ، وهي مادّيَّةٌ، وأكثرُها مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ ونحوِ ذلكَ. والزّينةُ: لفظٌ عامٌّ يشملُ الزّينةَ الخارجيَّةَ، كالثّيابِ والحُليِّ، وكالنَّباتِ المُزيِّنِ للأرضِ، والنُّجومِ والكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ، ويشملُ الزّينةَ الباطنةَ الَّتي تُدركُها العقولُ، كالعِلْمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ[2]. وقد عُبِّرَ بالزّينةِ في الآيةِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 210.

لأنَّ المرادَ بها الزّينةُ الخارجيَّةُ الظّاهرةُ لكلِّ أحدٍ، أي: العموم، كما هو شأنُ الكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ، ولتناسبِها معَ فعلِ التَّزيينِ.

النُّجومُ والكواكبُ:

الكوكبُ أنسبُ بالتَّزيينِ وأوفقُ للفاصلةِ

النَّجْمُ: جِرْمٌ سماويٌّ مُتوقِّدٌ مُنيرٌ. والكوكبُ: جِرْمٌ سماويٌّ مُظلِمٌ في الأصلِ، لكنَّهُ يعكسُ نورَ الشَّمسِ والنُّجومِ، فصارَ مُنيرًا أيضًا[1]. وقدِ استُعمِلَ الكوكبُ هنا؛ لأنَّ الغالبَ في القرآنِ التَّعبيرُ بهِ عندَ الحديثِ عن تزيينِ السَّماءِ، ولأنَّهُ الأنسبُ بالفاصلةِ.

الإلقاءُ، والرَّميُ، والقَذْفُ، والرَّجْمُ، والطَّرْحُ، والنَّبْذِ:

الشُّهُبُ تنقضُّ على مُسترِقي السَّمْعِ

الرَّمْيُ هو الأصلُ، وهو يُطلَقُ على الرَّمْيِ بالمعاني والأعيانِ، وعلى كلِّ حالاتِ الرَّمْيِ، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ؛ فالإلقاءُ يعني: طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ. والرَّجْمُ أشدُّ معاني الرَّمْيِ؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْمِ. والقَذْفُ: هو رَمْيُ الشَّيءِ مِنْ بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْيِ الإنسانِ بالتُّهَمِ البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِهِ. والطَّرْحُ والنَّبْذُ كلاهما يعني: إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ.

وقد عُبِّرَ بالقَذفِ لدلالتِهِ على الرَّمْيِ مِنْ بُعْدٍ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ الشُّهُبَ تنقضُّ على مُسترِقي السَّمْعِ انقضاضًا، حتَّى ترميَ بهِم، فيكونُ طَرْدُ الشَّياطينِ طَرْدًا قويًّا[2].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 738.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»